الدولة الأيوبية

[٥٦٧ هـ — ٦٤٨ هـ — ١١٧١ م — ١٢٥٠ م]

وصل أسد الدين شيركوه وصلاح الدين الأيوبى إلى مصر فى أوائل يناير عام ١١٦٨ م لنجدة مصر ضد جيوش املريك ملك الفرنج فى سوريا فحاول «شاور» وزير الخليفة الفاطمى العاضد أن يستميل «شيركوه» بالملق والمداهنة فلم يفلح وقبض عليه صلاح الدين وأمر الخليفة بقتله لما علم باتصاله بأعداء مصر وتخلصت البلاد من داهية لعب دوراً كبيرا فى السياسة المصرية فى القرن الثانى عشر .

واختار الخليفة العاضد بعد شاور القائد أسد الدين شيركوه ليكون وزيره الأول ولقبه بالملك ـ المنصور ـ غير أنه مات بعد شهرين وخمسة أيام فاستوزر من بعده البطل صلاح الدين وجعله أميراً لجيوشه ولقبه بالملك الناصر .

وانتهز صلاح الدين فرصة وفاة العاضد فقضى على الدولة الفاطمية فى مصر وأعاد سلطان العباسيين مرة ثانية إلى مصر ثم أنشأ أسرة الأيوبيين وجعل على وزارته «بهاء الدين قرقوش» . وبانقراض الدولة الفاطمية أزال صلاح الدين جند مصر من العبيد السود والأمراء المصريين والعرب والأرمن وجعلهم من الأكراد والأتراك فبلغت عدتهم ١٢٫٠٠٠ فارس

قضى البطل صلاح الدين معظم حياته خارج مصر محاربا الصليبيين لرفع شأو

الاسلام والمسلمين وفى خلال الأربعة والعشرين عاماً ، وهى فترة حكمه كحاكم مستقل ، لم يقض منها سوى ثمانية أعوام فى القاهرة بينما قضى سنى عمره متنقلا بين الشام وأرض الجزيرة وفلسطين . ولقد قضى على الصليبيين بانتصاره الخالد عليهم فى معركة حطين . وأعاد بيت المقدس لسلطان المسلمين وسمح للمسيحيين أن يحجوا إليه

ولا يتسع المجال للكلام عن انتصارات صلاح الدين على الصليبيين فى بلاد الشام ومصر وانتهاء نضاله معهم فى معارك حطين وصور وعكا والرملة لكننا نذكر موقفاً اشتركت فيه بعض قوات مصرية برية وبحرية . ففى عام (٥٧٨ هـ ١١٨٢ م) قصد الفرنج بلاد الحجاز بعد أن بنى الأمير أرناط (ريجنال دى شاتيون) صاحب قلعة « الكرك » بشرق الاردن سفنا وحملها على السير إلى بحر القلزم وأركب فيها الرجال وأوقف منها مركبين بالقرب من قلعة القلزم (السويس) لمنع أهلها من الاستقاء . وسارت البقية نحو ميناء (عيذاب) أحد موانىء مصر فقتلوا وأحرقوا وأسروا فى بحر القلزم نحو ست عشرة سفينة وأخذوا بعيذاب مركباً كان يأتى بالحجاج من جدة وأسروا قافلة كبيرة من الحجاج فيما بين قوص وعيذاب وقتلوا الجميع واحتفظوا بسفينتين محملتين بالبضائع . كما استولوا على أطعمة كثيرة كانت معدة لأهل الحرمين وأحدثوا حوادث لم يسمع فى بلاد الاسلام بمثلها وكانوا على مسيرة يوم واحد من المدينة المنورة . فأوفد الملك العادل بأمر من السلطان صلاح الدين القائد حسام الدين لؤلؤ إلى القلزم (السويس) حيث أعد أسطولا صنعت سفنه فى مصر والاسكندرية . وسار إلى (أيلة) على رأس العقبة وظفر بسفن الافرنج فحرقها وأسر من فيها . وسار إلى عيذاب وتبع سفن الفرنج فاستولى عليها . وأطلق من فيها من التجار الأسرى ورد إليهم ما أخذ وصعد البر مع قواته حتى أدرك من فر من جنود الأفرنج وأسرهم وساق منهم اثنين إلى منى وذبحهما ثم عاد إلى القاهرة بالأسرى فضربت أعناقهم كلهم فى جهات متعددة بين القاهرة والفسطاط . ثم انتقم صلاح الدين من الأمير أرناط وقتله بيده

وقد امتد سلطان مصر فى زمن الدولة الأيوبية ورفرفت رايتها على جزء عظيم من الممالك الاسلامية فدخل تحت حكمها الشام وشمالى العراق وبلاد الكرد وعند وفاة صلاح الدين (٤ مارس ١١٩٣ م) كانت مصر زعيمة دولة اسلاميه امتدت من دجلة إلى برقة وإلى النوبة جنوبا . وفى عهده شيدت قلعة الجبل على المقطم على البقعة التى كان يتدرب فيها الجند أثناء حكم أحمد بن طولون

وقد عمل خلفاء صلاح الدين بعده على الاحتفاظ بمكانة مصر التى كانت لها وجمعوا كلمة المسلمين . فوقفوا فى وجه الصليبيين وأضعفوا شوكتهم ولم يفتروا عن توطيد دعائم ملكهم ـ فكان الملك العادل من أكبر الناس حرصاً على وحدة المسلمين ، ولما خلفه ابنه الكامل سار على هدى أبيه وجده فحفظ وحدة الدولة وزاد فى تحصين القاهرة فأتم بناء قلعة صلاح الدين (الجبل) وفى أيامه غزا الصليبيون دمياط بقيادة الملك (جان دى بريين) عام ١٢١٨ م

معركة دمياط :

بدا للصليبيين أن يحولوا رحى الحرب من سوريا إلى مصر قلب الدولة الاسلامية فقصدوا دمياط وملكوها بعد معارك شديدة . وكان العادل فى الشام فمات أثناء عودته كمداً عليها

ثم تولى ابنه (الكامل) عام ١٢٠٨ م فعمل على طرد الصليبيين من دمياط ولما وصلت إليهم أمداد جديدة عرض عليهم الصلح على أن يرد إليهم بيت المقدس نظير جلائهم عن دمياط فرفضوا هذا البدل وشرعوا فى الزحف على القاهرة .

وانتهز المصريون فرصة ارتفاع النيل (الفيضان) فأطلقوا الماء على معسكراتهم بالقرب من المنصورة . ثم انقضوا عليهم من كل جانب وهزموهم شر هزيمة . ثم أمر الملك الكامل باطلاق سراح الأسرى بعد أن عاهدوه على أن يخلوا دمياط ويجلوا عن مصر

وفى أيام الملك الصالح نجم الدين أيوب (١٢٣٩ م) انتزع من الصليبيين بيت المقدس (١٢٤٤ م) وشيّد قلعة الروضة بجزيرتها حيث حشد فيها الجند والأسلحة

١ — كتاب معارك حاسمة فى تاريخ مصر ـ دمياط والمنصورة ـ للمؤلف

معركة المنصورة

فى عام ١٢٤٨ م أعد الفرنج حملة بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا للاستيلاء على مصر وأرسل خطاباً إلى السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب يطلب منه تسليم البلاد فكتب القاضى بهاء الدين زهير الجواب الحاسم بمقاومة المصريين إلى النهاية

وقدمت سفن الصليبيين أمام دمياط بكثرة هائلة فاضطرت حامية المدينة إلى التقهقر واخلائها من السكان بسرعة فاستولى عليها الفرنج بسهولة وأخذوا فى تحصين أسوارها وشحنها بالآلات الحربية والجند، وفى ذلك الوقت أسرعت القوات المصرية وعلى رأسها السلطان وبقيادة الأمير فخر الدين إلى المنصورة لمقاومة تقدم الاعداء وردهم على أعقابهم ،ولكن بعد أيام قلائل مات السلطان فكتمت زوجته شجرة الدر موته إلى أن أعلنت وفاته رسمياً ونصب مكانه الملك المعظم توران شاه

ولما علم الفرنج بموت السلطان خرجوا من دمياط متقدمين إلى فارسكور فوصلوها . وعسكرت قواتهم أمام المنصورة وصار بينهم وبين المسلمين بحر اشموم ولم يتركوا شبراً من الأرض بدون تحصين وكانت سفنهم أمام سفن المسلمين بازاء المنصورة فدار القتال براً وبحراً بعنف شديد . وكان النصر بينهما سجالا واستشهد فى إحدى هذه المعارك الأمير فخر الدين قائد الجيوش المصرية . وكادت جنود الفرنج تستولى على المنصورة أيضاً لولا ظهور الفارس الشجاع (بيبرس البندقدارى) على رأس طائفة من مماليكه البحرية حملوا على الفرنج حملة صادقة فأزاحوهم واستعملوا فى مكافحتهم السيوف والدبابيس فانهزموا وبلغ عدد من قتل من فرسان الفرنج الخيالة فى هذه المرة ألفاً وخمسمائة فارس . وضيقت المماليك الحصار حول مشاة الافرنج فلم ينج منهم إلا القليل . وكان الأسطول المصرى قد أضيفت اليه بعض الوحدات المشحونة بالجنود المدربين فتسورت سفن الفرنج أمام المنصورة . وسرعان ما استولى المصريون على اثنين وخمسين مركباً لهم وقتلوا وأسروا منهم نحو ألف مقاتل . واتخذ المصريون خطة الحصار البحرى وضيقوا

الخناق على أعدائهم حتى وهنت قوتهم وشرعوا فى طلب الهدنة على أن يسلموا دمياط ويأخذوا بدلا منها القدس وبعض البلاد الداخلية . فلما لم يستجب إليهم أحد أجلوا عن مواقعهم وتقهقروا إلى دمياط للتحصن بها فركب المصريون أقفيتهم وأجبروهم على التقهقر

وفى اليوم التالى لطلب الهدنة حدثت معركة فارسكور العنيفة التى قضت على جميع الصليبيين وأسر ملك فرنسا وجمع كبير من أمراء الحملة فسيقوا إلى المنصورة

الملك الأسير لويس التاسع فى المنصورة

واعتقل ملك فرنسا وأخوه فى الدار التى كانت للقاضى فخر الدين ابراهيم بن لقمان كاتب الانشاء . فلما رأى أمراء الحملة مالحق بهم وبحملتهم من الفشل طلبوا الصلح بنفس الشروط التى تمت فى معاهدة سابقة مع السلطان الكامل وانتهت الحملة بتسليم دمياط للمصريين ورفع العلم السلطانى على سور المدينة بعد أن أقام الجيش الفرنسى فيها شهراً وسبعة أيام ، ثم أفرج عن ملك فرنسا وعن أخيه وزوجته ورفاقه وأقلعوا إلى عكا . وقد بلغ عدد أسرى هذه الحملة ١٢١١٠ أسيراً

الجيش الأيوبى

كان قوام الجيش فى نهاية العصر الأيوبى وفى مستهل عصر المماليك ثلاث فئات من الأجلاب الذين نشأوا فى القوقاز وآسيا الصغرى أو غير ذلك من الأقاليم . وأولى تلك الفئات المماليك السلطانية وهم الذين يشتريهم السلطان أو يهدون اليه أو يرثهم من مماليك من سبقه فى السلطنة . ومن هذه الفئة المماليك الخاصكية وتتميز أفرادها عن سائر المماليك السلطانية بأنهم شبوا فى خدمة السلطان . فيتولى تربيتهم ثم يعتقهم ـ أما الفئة الثانية من الجيوش النظامية فهى أجناد الحلقة وأفرادها من محترفى الجندية من مماليك السلاطين السابقين وأولادهم وهى أقرب الفئات الى نظام الجيش الثابت فى العصور الحديثة . وكانت تتفاول مرتباتها من ديوان الجيش . والفئة الثالثة مماليك الأمراء وهى لا تختلف عن المماليك السلطانية إلا أن أفرادها تابعون لأمرائهم وطبيعى أن الوحدات الحربية التى كان الأمراء يتقدمون بها لمساعدة السلطان فى حروبه كانت تتألف من هذه الفئة . وكان أمراء الجند على أربع طبقات .

الطبقة الاولى : أمراء المئين مقدمو الألوف وعدة كل منهم مائة فارس . وكانت هذه الطبقة أعلا مراتب الأمراء . ومنهم أكابر أرباب الوظائف والنواب

الطبقة الثانية : أمراء الطبلخانة وعدة كل منهم فى الغالب أربعون فارسا . وازداد

أحيانا هذا العدد الى السبعين والثمانين ولا تكون الطبلخانة لأقل من أربعين .

الطبقة الثالثة : أمراء العشرات وعدة كل منهم عشرة فوارس

الطبقة الرابعة : أمراء الخمسات وهم قليلون

أما الجنود فقد تألفت منهم طبقتان

الطبقة الاولى : المماليك السلطانية وهم أعظم الجنود شأناً وأرفعهم قدراً وأشدهم الى السلطان قربا وأوفرهم مخصصات . ويتوقف عددهم من الكثرة والقلة على مشيئة السلطان

الطبقة الثانية : أجناد الحلقة وعددهم كثيرون غير نظاميين . وينضمون الى الجنود عند الضرورة

وقد زاد نفوذ المماليك فى أواخر عهد الأيوبيين وخاصة بعد انتصارهم على الصليبيين فى معركة المنصورة . تلك المعركة التى كانت من أقوى عوامل ظهور شأن بيبرس والمماليك البحرية ، الذين بفضلهم تخلصت البلاد الاسلامية من بلاء الغرب